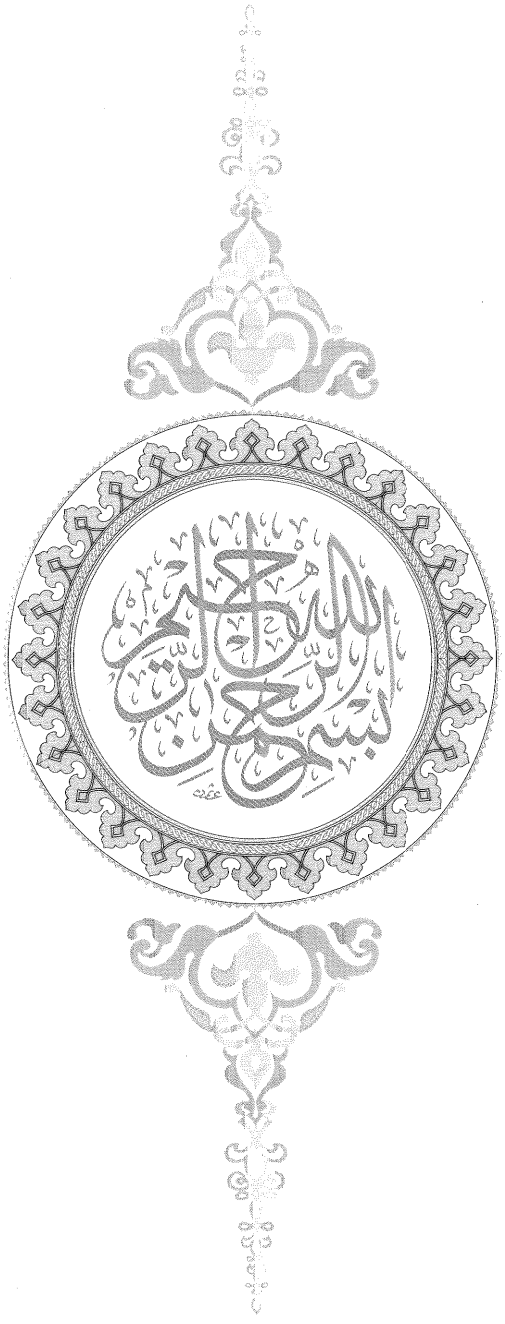
بسم الله الرحمن الرحيم

إحياء علوم الدين

تأليف

الإمام المجدد، حجة الإسلام والمسلمين
زين الدين، أبي حامد
محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي
الطوسي الطابراني الشافعي
رضي الله عنه
(٤٥٠ - ٥٠٥ هـ) - (١٠٥٨ - ١١١١ م)

ربع العبادات / القسم الأول

كتاب

العلم - قواعد العقائد

أسرار الطهارة ومهماتها - أسرار الصلاة ومهماتها

المجلد الأول

دار المنهاج

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م
جميع الحقوق محفوظة للناشر

المملكة العربية السعودية - جدة
حي الكندرة - شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون
هاتف رئيسي 6326666 - الإدارة 6300655
المكتبة 6322471 - فاكس 6320392
ص. ب 22943 - جدة 21416
www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com
ISBN: 978 - 9953 - 541 - 50 - 1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ

خُطْبَةُ المؤلِّف

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَبِهِ نَسْتَعِينُ

رب يسر وأعن وتمم بخير ياكريم

قال الشيخ الإمام الأوحد زين الدين شرف الأئمة حجة الإسلام
أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي رحمه الله عليه :

أحمدُ اللهَ تعالىٰ أوَّلاً ، حمداً كثيراً متوالياً وإنْ كانَ يتضاءلُ دونَ حقِّ جلالِهِ حمدُ الحامدينَ .

وأصلِّي وأسلِّمُ علىٰ رسولِهِ ثانياً، صلاةً تستغرقُ مع سيِّدِ البشرِ سائرَ المرسلينَ .

وأستخيرُهُ سبحانَهُ وتعالىٰ ثالثاً ، فيما انبعثَ لهُ عزمي مِنْ تحريرِ كتابٍ في إحياءِ علومِ الدينِ .

وأنتدبُ لقطْعِ تعجُّبِكَ رابعاً ، أيُّها العاذلُ الغالي في العذلِ مِنْ بينِ زمرةِ الجاحدينَ[1] ، المسرفُ في التقريعِ والإنكارِ مِنْ طبقاتِ المنكرينَ الغافلينَ .

---

(١) أنتدب : أسارع ، والغالي : المجاوز الحد في كل أمر .

فلقدْ حلَّ عَنْ لساني عقدةَ الصمتِ ، وطوَّقني عهدةَ الكلامِ وقلادةَ النطقِ ما أنتَ مثابرٌ عليهِ من العملِ عَنْ جليَّةِ الحقِّ ، مع اللَّجاجِ في نصرةِ الباطلِ وتحسينِ الجهلِ ، والتشغيبِ علىٰ مَنْ آثرَ النزوعَ قليلاً عَنْ مراسمِ الخلقِ ، ومالَ ميلاً يسيراً عن ملازمةِ الرسمِ إلى العملِ بمقتضى العلمِ ؛ طمعاً في نيلِ ما تعبَّدَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ من تزكيةِ النفسِ وإصلاحِ القلبِ ، وتداركاً لبعضِ ما فَرَطَ منْ إضاعةِ العمر يأساً عَنْ تمامِ التلافي والجبْرِ ، وانحيازاً عَنْ غِمارِ مَنْ قالَ فيهم صاحبُ الشرعِ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم : « أشدُّ الناسِ عذاباً يومَ القيامةِ عالمٌ لمْ ينفعْهُ اللهُ سبحانَهُ بعلمِهِ »[1] .

ولعمري ؛ لا سببَ لإصرارِكَ على النكيرِ إلا الداءُ الذي عمَّ الجمَّ الغفيرَ ، بلْ شملَ الجماهيرَ ؛ من القصورِ عنْ ملاحظةِ ذُروةِ هذا الأمرِ ، والجهلِ بأنَّ الأمرَ إدٌّ والخطبَ جدٌّ[2] ، والآخرةَ مقبلةٌ والدنيا مدبرةٌ ، والأجلَ قريبٌ والسفرَ بعيدٌ ، والزادَ طفيفٌ والخطرَ عظيمٌ ، والطريقَ سَدٌّ ، وما سوى الخالصِ لوجْهِ اللهِ تعالىٰ من العلمِ والعملِ عندَ الناقدِ البصيرِ ردٌّ ، وسلوكَ طريقِ الآخرةِ مع كثرةِ الغوائلِ مِنْ غيرِ دليلٍ ولا رفيقٍ متعبٌ مكدٌّ .

فأدلَّةُ الطريقِ هم العلماءُ الذينَ همْ ورثةُ الأنبياءِ ، وقد شَغَرَ عنهمُ الزمانُ ، ولمْ يبقَ إلا المترسِّمونَ ، وقد استحوذَ علىٰ أكثرِهِمُ الشيطانُ ،

---

(١) رواه الطبراني في « الصغير » (١/ ١٨٢) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١١٢٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٦٤٢) .

(٢) الإدُّ : الداهية والأمر الفظيع .

واستغواهمُ الطغيانُ ؛ فأصبحَ كلُّ واحدٍ بعاجلِ حظِّهِ مشغوفاً ، فصارَ يرى المعروفَ منكراً والمنكرَ معروفاً ، حتىٰ ظلَّ علَمُ الدينِ مندرساً ، ومنارُ الهدىٰ في أقطارِ الأرضِ منطمساً .

ولقد خيَّلُوا إلى الخلقِ أنْ لا علمَ إلا فتوىٰ حكومةٍ تستعينُ بها القضاةُ علىٰ فصلِ الخصامِ عندَ تهارشِ الطَّغامِ[1] ، أو جدلٌ يتدرَّعُ بهِ طالبُ المباهاةِ إلى الغلبةِ والإفحامِ ، أو سجعٌ مزخرفٌ يتوسَّلُ بهِ الواعظُ إلى استدراجِ العوامِّ ؛ إذْ لمْ يرَوا ما سوىٰ هـٰذهِ الثلاثةِ مصيدةً للحرامِ وشبكةً للحُطامِ .

فأمَّا علمُ طريقِ الآخرةِ وما درجَ عليهِ السلفُ الصالحُ ؛ ممَّا سمَّاهُ اللهُ سبحانَهُ في كتابِهِ فقهاً وحكمةً وعلماً ، وضياءً ونوراً ، وهدايةً ورشداً . . فقدْ أصبحَ مِنْ بينِ الخلقِ مطويّاً ، وصارَ نسياً منسيّاً .

ولمَّا كانَ هـٰذا ثَلْماً في الدينِ ملِمّاً ، وخطباً مدلهمّاً . . رأيتُ الاشتغالَ بتحريرِ هـٰذا الكتابِ مهمّاً ؛ إحياءً لعلومِ الدينِ ، وكشفاً عَنْ مناهجِ الأئمَّةِ المتقدمينَ ، وإيضاحاً لما هي العلومُ النافعةُ عندَ النبيِّين والسلفِ الصالحينَ ، سلامُ اللهِ عليهمْ أجمعينَ .

ولقدْ أسَّسْتُهُ علىٰ أربعةِ أرباعٍ : ربعِ العباداتِ ، وربعِ العاداتِ ، وربعِ المهلكاتِ ، وربعِ المنجياتِ .

---

(١) قوله : (**إلا فتوىٰ حكومة**) : هو ما يكتب في أجوبة المسائل في الواقعات والنوازل من الحلال والحرام والإباحة والمنع ، **والطغام** : أراذل الناس وأوغادهم . « إتحاف » (١/٥٨) .

وصدَّرتُ الجملةَ بكتابِ العلمِ ؛ لأنَّه غايةُ المهمِّ ، لِأكشفَ أولاً عَنِ العلمِ الذي تعبَّدَ اللهُ عزَّ وجلَّ الأعيانَ بطلبِهِ علىٰ لسانِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طلبُ العلمِ فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ »[1] ، وأميزَ فيهِ العلمَ النافعَ مِنَ الضارِّ ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نعوذُ باللهِ مِنْ عِلْمٍ لا ينفعُ »[2] ، وأحقِّقَ ميلَ أهلِ العصرِ عَنْ شاكلةِ الصوابِ ، وانخداعَهُمْ بلامعِ السرابِ ، واقتناعَهُمْ مِنَ العلومِ بالقِشْرِ عَنِ اللبابِ .

❀ ❀ ❀

ويشتملُ ربعُ العباداتِ علىٰ عشرةِ كتبٍ :

كتابِ العلمِ ، وكتابِ قواعدِ العقائدِ ، وكتابِ أسرارِ الطهارةِ ، وكتابِ أسرارِ الصلاةِ ، وكتابِ أسرارِ الزكاةِ ، وكتابِ أسرارِ الصيامِ ، وكتابِ أسرارِ الحجِّ ، وكتابِ آدابِ تلاوةِ القرآنِ ، وكتابِ الأذكارِ والدعواتِ ، وكتابِ ترتيبِ الأورادِ في الأوقاتِ .

وأمَّا ربعُ العاداتِ . . فيشتملُ علىٰ عشرةِ كتبٍ :

كتابِ آدابِ الأكلِ ، وكتابِ آدابِ النكاحِ ، وكتابِ أحكامِ الكسْبِ ، وكتابِ الحلالِ والحرامِ ، وكتابِ آدابِ الصحبةِ والمعاشرةِ مع أصنافِ الخلقِ ، وكتابِ العزلةِ ، وكتابِ آدابِ السفرِ ، وكتابِ السماعِ والوجْدِ ، وكتابِ الأمرِ

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٤) .
(٢) رواه مسلم (٢٧٢٢) .

بالمعروفِ والنهيِ عَنِ المنكرِ ، وكتابِ آدابِ المعيشةِ وأخلاقِ النبوَّةِ .

وأمَّا ربعُ المهلكاتِ . . فيشتملُ علىٰ عشرةِ كتبٍ :

كتابِ شرحِ عجائبِ القلبِ ، وكتابِ رياضةِ النفْسِ ، وكتابِ آفاتِ الشهوتينِ : شهوةِ البطنِ وشهوةِ الفرجِ ، وكتابِ آفاتِ اللسانِ ، وكتابِ آفاتِ الغضبِ والحقدِ والحسدِ ، وكتابِ ذمِّ الدنيا ، وكتابِ ذمِّ المالِ والبخلِ ، وكتابِ ذمِّ الجاهِ والرياءِ ، وكتابِ ذمِّ الكبْرِ والعُجبِ ، وكتابِ ذمِّ الغرورِ .

وأمَّا ربعُ المنجياتِ . . فيشتملُ علىٰ عشرةِ كتبٍ :

كتابِ التوبةِ ، وكتابِ الصبرِ والشكرِ ، وكتابِ الخوفِ والرجاءِ ، وكتابِ الفقرِ والزهدِ ، وكتابِ التوحيدِ والتوكلِ ، وكتابِ المحبَّةِ والشوقِ والأنسِ والرضا ، وكتابِ النيَّةِ والصدْقِ والإخلاصِ ، وكتابِ المراقبةِ والمحاسبةِ ، وكتابِ التفكُّرِ ، وكتابِ ذكرِ الموْتِ[1] .

❀ ❀ ❀

فأمَّا ربعُ العباداتِ : فأذكرُ فيهِ مِنْ خفايا آدابِها ، ودقائقِ سُنَنِها ، وأسرارِ معانيها ، ما يضطرُّ العالمُ العاملُ إليهِ ، بلْ لا يكونُ مِنْ علماءِ الآخرةِ مَنْ لمْ يطلعْ عليهِ ، وأكثرُ ذلكَ ممَّا أُهملَ في فنِّ الفقهياتِ .

وأمَّا ربعُ العاداتِ : فأذكرُ فيهِ أسرارَ المعاملاتِ الجاريةِ بينَ الخلقِ ،

---

(١) وقد التمس الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١/ ٦٠) ترابطاً منطقياً لهذه الكتب الأربعين .

وأغوارَها ، ودقائقَ سنَنِها ، وخفايا الورعِ في مجاريها ، وهيَ ممَّا لا يستغني متديِّنٌ عنها .

وأمَّا ربعُ المهلكاتِ : فأذكرُ فيهِ كلَّ خُلُقٍ مذمومٍ وردَ القرآنُ بإماطتِهِ وتزكيةِ النفسِ عنهُ ، وتطهيرِ القلبِ منهُ ، وأذكرُ مِنْ كلِّ واحدٍ مِنْ تلكَ الأخلاقِ حدَّهُ وحقيقتَهُ ، ثمَّ سببَهُ الذي منهُ يتولَّدُ ، ثمَّ الآفاتِ التي عليها تترتَّبُ ، ثمَّ العلاماتِ التي بها تتعرَّفُ ، ثم طرقَ المعالجةِ التي بها منها يُتخلَّصُ .

كلُّ ذلكَ مقروناً بشواهدِ الآياتِ والأخبارِ والآثارِ .

وأمَّا ربعُ المنجياتِ : فأذكرُ فيهِ كلَّ خُلُقٍ محمودٍ ، وخَصْلةٍ مرغوبٍ فيها مِنْ خصالِ المقرَّبينَ والصدِّيقينَ ، التي بها يتقرَّبُ العبدُ مِنْ ربِّ العالمينَ ، وأذكرُ في كلِّ خَصلةٍ حدَّها وحقيقتَها ، وسببَها الذي بهِ تُجتلَبُ ، وثمرتَها التي منها تُستفادُ ، وعلامتَها التي بها تتعرَّفُ ، وفضيلتَها التي لأجلِها فيها يُرغبُ ، مع ما وردَ فيها مِنْ شواهدِ الشرعِ والعقلِ .

❀ ❀ ❀

ولقدْ صُنِّفَ في بعضِ هـٰذهِ المعاني كتبٌ[1] ، ولكنْ يتميَّزُ هـٰذا الكتابُ عنها بخمسةِ أمورٍ :

---

(١) كـ « قوت القلوب » و« الرعاية » و« منازل السائرين » و« الرسالة » و« التعرُّف » وغيرها . « إتحاف » (١/ ٦٢) .

الأوَّلُ : حلُّ ما عقدُوهُ ، وكشفُ ما أجملُوهُ .

الثاني : ترتيبُ ما بدَّدُوهُ ، ونظمُ ما فرَّقُوهُ .

الثالثُ : إيجازُ ما طوَّلوهُ ، وضبطُ ما قرَّروهُ .

الرابعُ : حذفُ ما كرَّروهُ ، وإثباتُ ما حرَّروهُ .

الخامسُ : تحقيقُ أمورٍ غامضةٍ اعتاصتْ على الأفهامِ لمْ يُتعرَّضْ لها في الكتبِ أصلاً ؛ إذِ الكلُّ وإنْ تواردوا علىٰ منهجٍ واحدٍ فلا مستنْكَرَ أنْ ينفرِدَ كلُّ واحدٍ مِنَ السالكينَ بالتنبُّهِ لأمرٍ يخصُّهُ ويغفُلُ عنهُ رفقاؤُهُ ، أوْ لا يغفُلُ عن التنبُّهِ لهُ ولكنْ يسهو عَنْ إيرادِهِ في الكتبِ ، أوْ لا يسهو ولكنْ يصرفُهُ عَنْ كشفِ الغطاءِ عنهُ صارفٌ .

فهـٰذهِ خواصُّ هـٰذا الكتابِ ، مع كونِهِ حاوياً لمجامعِ هـٰذهِ العلومِ .

وإنَّما حملَني علىٰ تأسيسِ الكتابِ علىٰ أربعةِ أرباعٍ أمرانِ :

ـ أحدُهما وهو الباعثُ الأصليُّ : أنَّ هـٰذا الترتيبَ في التحقيقِ والتفهيمِ كالضروريِّ ؛ لأنَّ العلمَ الذي يُتوجَّهُ بهِ إلى الآخرةِ ينقسمُ إلىٰ علمِ المعاملةِ وعلمِ المكاشفةِ .

وأعني بعلمِ المكاشفةِ : ما يُطلبُ منهُ كشفُ المعلومِ فقطْ .

وأعني بعلمِ المعاملةِ : ما يُطلبُ منهُ معَ الكشْفِ العملُ بهِ .

والمقصودُ من هـٰذا الكتابِ : علمُ المعاملةِ فقطْ دونَ علمِ المكاشفةِ التي لا رخصةَ في إيداعِها الكتبَ ، وإنْ كانتْ هيَ غايةَ مقصدِ الطالبينَ ، ومطمحَ نظرِ الصدِّيقينَ[1] ، وعلمُ المعاملةِ طريقٌ إليهِ ، ولكنْ لمْ يتكلَّمِ الأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهِمْ معَ الخلقِ إلا في علمِ الطريقِ والإرشادِ إليهِ ، وأمَّا علمُ المكاشفةِ . . فلمْ يتكلَّموا فيهِ إلا بالرمزِ والإيماءِ علىٰ سبيلِ التمثيلِ والإجمالِ[2] ؛ علماً منهمْ بقصورِ أفهامِ الخلْقِ عنِ الاحتمالِ ، والعلماءُ ورثةُ الأنبياءِ ، فما لهُمْ سبيلٌ إلى العدولِ عن نهجِ التأسِّي والاقتداءِ .

ثمَّ إنَّ علمَ المعاملةِ ينقسمُ إلىٰ **علمٍ ظاهرٍ** ؛ أعني العلمَ بأعمالِ الجوارحِ ، وإلىٰ **علمٍ باطنٍ** ؛ أعني العلمَ بأعمالِ القلوبِ .

والجاري على الجوارحِ : إمَّا **عبادةٌ** أوْ **عادةٌ** .

والواردُ على القلوبِ التي هيَ بحكمِ الاحتجابِ عنِ الحواسِّ مِنْ عالمِ الملكوتِ : إمَّا **محمودٌ** ، وإمَّا **مذمومٌ** .

فبالواجبِ انقسمَ هـٰذا العلمُ إلىٰ شطرينِ : ظاهرٍ وباطنٍ ، والشطرُ الظاهرُ المتعلِّقُ بالجوارحِ انقسمَ إلىٰ عبادةٍ وعادةٍ ، والشطرُ الباطنُ المتعلِّقُ بأحوالِ القلبِ وأخلاقِ النفسِ انقسمَ إلىٰ مذمومٍ ومحمودٍ ؛ فكانَ المجموعُ

---

(١) كما قرر المؤلف رحمه الله تعالىٰ ذلك في « المنقذ من الضلال » ؛ إذ ألَّفه لتحقيق ذلك .

(٢) لأنه من الأمور الوجدانية ، فإن العاقل يكفيه الإشارة ، والغافل لا يفيده صريح العبارة . « إتحاف » (١/ ٦٣) .

أربعةَ أقسامٍ ، ولا يشُذُّ نظرٌ في علمِ المعاملةِ عنْ هـٰذهِ الأقسامِ .

ـ **الباعثُ الثاني** : أنِّي رأيتُ الرغبةَ مِنْ طلبةِ العلمِ صادقةً في الفقهِ الذي صلَحَ عندَ مَنْ لا يخافُ اللهَ تعالىٰ للتدرُّعِ بهِ إلى المباهاةِ والاستظهارِ بجاهِهِ ومنزلتِهِ في المنافساتِ ، وهو مرتَّبٌ علىٰ أربعةِ أرباعٍ ، والمتزيي بزيِّ المحبوبِ محبوبٌ ، فلمْ أُبعدْ أنْ يكونَ تصويرُ الكتابِ بصورةِ الفقهِ ؛ تلطُّفاً في استدراجِ القلوبِ ، ولهـٰذا تلطَّفَ بعضُ مَنْ رامَ استمالةَ قلوبِ الرؤساءِ إلى الطبِّ ، فوضَعَهُ علىٰ هيئةِ تقويمِ النجومِ ، موضوعاً في الجداولِ والرقومِ ، وسمّاهُ « تقويمَ الصحَّةِ »[1] ؛ ليكونَ أُنسُهُمْ بذلكَ الجنسِ جاذباً لهمْ إلى المطالعةِ ، والتلطُّفُ في اجتذابِ القلوبِ إلى العلمِ الذي يفيدُ حياةَ الأبدِ أهمُّ مِنَ التلطُّفِ في اجتذابِها إلى الطبِّ الذي لا يفيدُ إلا صحَّةَ الجسدِ .

فثمرةُ هـٰذا العلمِ طبُّ القلوبِ والأرواحِ ، للتوصُّلِ بهِ إلىٰ حياةٍ تدومُ أبدَ الآبادِ ، فأينَ منهُ الطبُّ الذي تعالجُ بهِ الأجسادُ وهي معرَّضَةٌ بالضرورةِ للفسادِ في أقربِ الآمادِ ؟!

فنسأل الله سبحانه التّوفيق للرّشاد والسّداد

إنّه هو الكريم الجواد

---

(١) وكأنه عنىٰ به كتاب المختار بن الحسن بن عبدون المتطبب ؛ فإنه سمَّاه كذلك ، وعلىٰ نهجه بنى ابن جزلة وابن البيطار كتابيهما . « إتحاف » (١/ ٦٤) .